فتح القسطنطينية

للدكتور سالم أحمد الرشيدي

« لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »
حديث شريف

تحتل مدينة القسطنطينية موقعاً فريداً بين مدن العالم، وحسبك أن تلقى نظرة عليها فى الخريطة فتدرك ذلك. فهى تقع عند ملتقى القارتين آسية وأوربا، يحيط بهـا البحار من ثلاث جهات. وقد حبتها الطبيعة خصوبة الأرض وجودة الطقس كما حبتها أسباب القـوة والمنعة. وللقسطنطينية ميناؤها العظيم فى القرن الذهبى الذى كان يعد أوسع وآمن ميناء فى العالم. وكانت هذه المدينة فوق ذلك كله مركزاً عظيما للتجـارة، تأتى إليها المتاجر من كل صوب من البر والبحر. وقد نوه نابليون بونابارت بوجه خاص فى العصور الحديثة بأهميتها وخطورتها فقال فى شأنها « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لـكانت القسطنطينية أصلح المدن لتـكون عاصمة لها ». وذكر نابليون فى مذكراته التى كتبها فى منفاه بجزيرة سانت هيلين Sainte Helène أنه حاول مرات عدة الاتفاق مع روسيا على اقتسـام الإمبراطورية [(١)] التركية، ولـكن وقفت القسطنطينية فى كل مرة العقبة الـكؤود دون الاتفاق. فقد كانت روسيا تلح فى امتلاكها ونابليون يصر على عدم تسليمها إذ أن هذه المدينة وحدها كانت فى نظره تسـاوى إمبراطورية. وهى تعد بمثابة مفتاح العالم، من استولى عليها استطاع أن يسيطر على العالم بأجمعه. وقد كان نابليون فى أشد الحـاجة إلى صداقة روسيا لمواجهة عدوته اللدود إنجلترا؛ ولـكنه برغم ذلك لم يستطع أن يضحى بالقسطنطينية. ولو قد تم الاتفاق بين نابليون وروسيا

(١) يقول اللغوى العلامة الأب أنستاس مارى الـكرملى: « إن كتابة الإمبراطور بهذا الرسم كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربية لأنه لا يرى فى الـكلم الضادية من عربية ومعربة، فيها الميم ساكنة، ويليها باء متحركة. فإذا وقع مثل ذلك رسمت الميم نونا. ولهـذا يجب أن تكتب (الانبراطور) بنون » وهناك لغات أخرى فى كتابة هذه الـكلمة مثل: انبراطور وانبرادور وانبرور وجميعها بالنون

وفى شعره ثورة على الظالم وتبرم بالظالمين:

أغرب ما شاهدت فى   حكم الشعوب والأمم
مسلط يطاع فيها   أمره، وإن ظلم
وخادم يعطى له السيـ   ـد أجر ما اجترم

السيد إبراهيم طوقان رحمه الله، من شعراء الشباب فى فلسطين، فى شعره حيوية وقوة تهيجها الذكريات الخالدة، وتحركها الحوادث العظيمة، فذكرى خالدة كذكرى واقعة حطين تعصف فى نفسه عصفاً قويا ولا تنفك تعصف حتى يقول:

قف على[(١)] حطين واخشع   يشج قلبك ما شجانى
وانظر هنالك هل ترى   آثار يوسف فى المكان
من كل خطار على الأخـ   ـطار صبار الجنان
حلقات أدرعهم قيو   د الموت فى درك الطعان
وسيوفهم ماء الحميم   على مضاربهن قان
والخيل طوع كأنها   فى النقع مرخاة العنان
لا تنثنى أو تحرز القصبا   ت فى يوم الرهان

وخذ هذه القطعة القوية التى يصف بها من يخاطر بحياته فى سبيل عقيدته:

لا تسل عن سلامته   روحه فوق راحته
بدلته همومه   كفناً من وسادته
بين جنبيه خافق   يتلظى لغايته
صامت لو تكلما   لفظ النار والدما
قل لمن عاب صمته   خلق الحزم أبكما
وأخو الحزم لم تزل   يده تسبق الفما

وخذ هذه القطعة أيضاً يصف بها الشهيد:

عبس الخطب فابتسم   وطغى الهول فاقتحم
رابط الجأش والنهى   ثابت القلب والقدم
لا يبالى الأذى ولم   يثنه طارئ ألم
لا تقل أين جسمه   واسمه فى فم الزمن
إنه كوكب الهدى   لاح فى غيهب المحن
أرسل النور فى العيو   ن فما تعرف الوسن

حمدى الحسينى

(١) كذا

على مصير هذه المدينة لتغير مجرى تاريخ أوربا وتغير تبعا لذلك مجرى تاريخ العالم كله

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ القدم أهمية هذه المدينة وخطورة موقعها فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة . غير أن هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها أن تصد معظم الغزاة الفاتحين وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات ، وقد وردت أحاديث كثيرة تبشرهم بفتح القسطنطينية منها قوله عليه الصلاة والسلام « لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش » الأمر الذى زادهم تعلقا وأملا فى فتح هذه المدينة . وقد حاول المسلمون فتحها منذ أيام الخليفة عثمان بن عفان واستشهد تحت أسوارها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى فى عهد معاوية بن أبى سفيان . وهكذا أصبحت القسطنطينية — إلى جانب أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية — أهمية دينية خاصة فى نظر العثمانيين الذين حملوا لواء الإسلام والجهاد فى سبيله بعد استقرار دولتهم الجديدة فى آسيا الصغرى فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى . وقد أدرك عثمان أول سلاطين الدولة العثمانية — كغيره من الفاتحين قبله وبعده — قيمة هذه المدينة وعظم قدرها ولكنه لم يكن إذ ذاك قد بلغ من القوة ما يقدر به على فتحها فأوصى بذلك من يأتى بعده . وقد حاصرها السلطان بايزيد الأول والسلطان مراد الثانى ولكنهما لم يصلا إلى فتحها حتى جاء السلطان محمد الفاتح فاستطاع — بما أظهره من إحكام القيادة وحسن التنظيم وسرعة الخاطر وقوة العزيمة والمصابرة والجلد والتفنن فى ابتداع آلات الحصار والقتال — أن يصل إلى فتح هذه المدينة ، وحقق بذلك حلم الفاتحين منذ ألف عام كما حقق البشارة النبوية الكريمة بفتح القسطنطينية

وقد أوصى السلطان الفاتح جنوده عند دخولهم هذه المدينة باتباع تعاليم الشرع الحنيف فلا يقاتلون إلا من قاتلهم ولا يعرضون للنساء والأطفال والعجزة بسوء أو أذى ، ويحسنون معاملة من يقع فى أيديهم من الأسرى وأن يكونوا أهلا للشرف العظيم الذى حباهم به الرسول (ص) فى حديثه

وباستيلاء المسلمين على القسطنطينية قضى على ما كان يستحر فيها من المنازعات والمشاحنات الدينية التى طالما أثارت الفتنة وأراقت الدماء ، وحرم السلطان الفاتح اضطهاد النصارى تحريما قاطعا ولم يميز فى تسامحه ومعاملته بين أحد منهم على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم بل جعلهم كلهم سواء وأظلهم جميعا بعدله ورعايته . وقد طلب إليه بعض الجهلة المتعصبين قتل الروم وإبادتهم إذا لم يدخلوا فى الإسلام فأبى عليهم ذلك وقال إنه يخالف تعاليم القرآن وأذن للروم بانتخاب بطركهم الجديد بنفس المراسم الفخمة التى كانت تتبع فى عهد الأباطرة الأول . وقد احتفى به السلطان الفاتح وأعظم لقياه وبالغ فى تكريمه ولكن مؤرخا إنجليزيا هو اللورد إيفرسلى Lord Eversly قد استنتج من هذا التسامح أنه دليل على أن العثمانيين فى فتوحاتهم بأوربا لم يكونوا يقصدون إلى نشر الإسلام . وهو استنتاج خبيث المرمى والغرض إذ معناه أن الإسلام قبل ذلك لم ينتشر بالتسامح والاختيار ، وإنما نشر بالسيف والإكراه . ولو أن هذا اللورد الإنجليزى قد شذا شيئا فى تاريخ الإسلام لعلم أن هذا الدين فى مختلف عصوره وعهوده لم يفرض قط على أحد من الناس . ويقول السير توماس أرنولد Sir Thomas Arnold : إن مدينة القسطنطينية بعد الفتح العثمانى الإسلامى أصبحت ملجأ العالم كله ، يأمن فيه الخائف والمذعور ويطمئن فيه المضطهد والمظلوم وينال فيه جميع الناس العدل والمساواة والحرية على قدر سواء لا تمييز بين غنى وفقير ولا بين عظيم وحقير . فكان فتح القسطنطينية بحق مفخرة من مفاخر الاسلام التى نزهى بها التاريخ ومجدا من أمجاده الخالدة الباقية على الدهر

لقد كان لسقوط القسطنطينية فى يد الأتراك العثمانيين (فى العشرين من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هـ ٢٩ مايو ١٤٥٣) دوى عظيم فى العالم ولكن اختلف وقعه وأثره فى الغرب عن وقعه وأثره فى الشرق . أما النصارى فى الغرب فقد سمعهم نبأ هذا الحادث وعلكهم الفزع والألم والحزن وتجسم لهم خطر المسلمين وتهديدهم لأوربا النصرانية وتوجسوا أن يكون انتصار محمد الفاتح بداية لتوغله فى أوربا فأخذوا يتتبعون خطواته وحركاته بقلق واهتمام وعظمت فى أعينهم أهمية القسطنطينية وخطورة قيمتها . وازداد الأتراك العثمانيون شهرة فى الناحية العسكرية بعد

استيلائهم على هذه المدينة المنيعة الخالدة . وقال حاكم مدينة غلطه في رسالة كتبها بعد فتح القسطنطينية بنحو شهر إن السلطان محمد الفاتح، يهدف إلى أن يكون سيد العالم وأنه قبل أن تمضي سنتان سيزحف إلى رومة . وعبر كتاب معاصرون آخرون عن مثل هذا الفزع . وخطب إينياس سلفيوس Aeneas Sylvius (الذي صار فيما بعد بابا باسم بي الثاني Pie 2) أمام ندوة فرانكفورت يقول : إن سقوط القسطنطينية قد جعل الجو مفتوحة أمام محمد الفاتح وإذا ما خضعت له هذه البلاد انفتحت له الطريق لغزو إيطاليا وألمانيا . وبعث أحد شعراء النصرانية في الشرق بقصيدة طويلة إلى العالم النصراني يهيب به إلى قتال الأتراك وحث البابا نيقولا الخامس أن يعمل على توحيد كلمة أمراء النصرانية وتوجيه جميع جهودهم وقواهم لقتال العدو المشترك ثم انتهى الشاعر إلى المذراء ، ودعا أن يكتب النصر لقومه

والحق أن النصارى في الغرب قد انبعث فيهم نوع من الروح الصليبية القديمة وتداعى الناس إلى طرح الخلافات والحزازات والاتحاد ضد الأتراك . وعنف الكاردينال سنت أنج اللاتين وقرعهم على تخاذلهم عن نجدة الروم وألقى عليهم تبعة هذه الكارثة العظيمة . وكان البابا نيقولا الخامس أشد الناس تأثرا بنبأ سقوط القسطنطينية في يد الأتراك وجد في توحيد الدول الإيطالية وتأليبها على قتالهم، ورأس مؤتمرا في رومة أعلنت فيه الدول المشتركة عزمها على التهادن فيما بينها وتوجيه جميع جهودها وقواها ضد العدو المشترك

وكان من أعظم الناس تأثرا باستيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية فيليب الطيب دوق بورغوبا وقد كان هذا الدوق بطبعه ذا نزعة صليبية قوية ومن أشد الناس تحمسا لقتال الأتراك من قبل سقوط القسطنطينية، فلما استولى هؤلاء على هذه المدينة وجاءه رسول البابا سنة ١٤٥٣ يستحثه على قتال محمد الفاتح التهب حماسا وحمية واستنفر جميع النصارى إلى هذا القتال وذهب بنفسه إلى ألمانيا يستنهض إمبراطورها فريدريك الثالث . وبعث هذا الإمبراطور بدوره إلى ملك فرنسا شارل السابع كما بعث إليه في نفس الوقت الملك ألفونس يحثانه على حرب السلطان محمد الفاتح ، ولم يلبث أن تحولت الفكرة الصليبية من قتال الأتراك العثمانيين إلى قتال جميع المسلمين وغزو جميع بلادهم إمعانا في الانتقام وأخذ الثأر لمدينة القسطنطينية . يقول المؤرخ المصري المعاصر أبو المحاسن ابن تغري بردي « وفي هذا الشهر (ربيع الآخر ٨٦١ هـ مايو ١٤٥٧ م) وردت الأخبار من الإسكندرية وغيرها من بلاد الساحل أن الفرنج عمرت نحو ثلثمائة مركب لغزو سائر سواحل الإسلام من الروم إلى الإسكندرية ودمياط مكافأة لأخذ السلطان محمد بن عثمان اسطنبول من الفرنج خزاهم الله فلم يلتفت السلطان لهذا الخبر لعزة شوكة الإسلام ونصرته إن شاء الله إلى يوم القيامة » (١) وقد أرسل الغرب النصراني فعلا فيما بعد حملات حربية إلى الشرق ولكنها كانت محدودة الأثر لم تتعد تخريب بعض المدن الساحلية في آسية الصغرى

ذلك ما كان من حال النصارى في الغرب وموقفهم بعيد فتح القسطنطينية . أما في الشرق الإسلامي فقد كان الأمر على عكس ذلك ، إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين في ربوع آسية وإفريقية ، لهذا الفتح الإسلامي العظيم . وما أن وصل رسل السلطان محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح حتى هال المسلمون وكبروا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر وزينت المنازل والدكاكين والحوانيت وعلقت على الجدران والحوائط الأعلام والبنود المزركشة المختلفة الألوان وأمضى الناس في هذه البلاد أياما كأحسن ما تكون أيام الأعياد الإسلامية روعة ورونقا وبهاء . وأي مسلم كان لا يغتبط وقد تحققت نبوءة كريمة لنبيهم الكريم بفتح القسطنطينية التي استعصت على المسلمين منذ الصدر الأول من الإسلام ؟

وندع هنا المؤرخ المصري المعاصر الثقة أبا المحاسن بن تغري بردي يصف لنا شعور الناس وحالهم في القاهرة بعد أن وصل إليها قاصد السلطان محمد الفاتح ورفقته في الثالث والعشرين من شوال سنة ٨٥٧ (٢٧ أكتوبر ١٤٥٣) بنبأ فتح القسطنطينية ومعهم

---

(١) هكذا كان حال الإسلام منذ قرون . تتألب جميع دول أوربا وتحشد جموعها لغزو الشرق فلا يحرك ذلك في المسلمين أي التفات أو مبالاة اعتدادا بقوتهم وشوكتهم

فأين نحن اليوم من هذا ؟